



## في صوامع العلم والدراسة

فاذا ذكرت ذلك المذهب فطملك واجد فيه من وشائج القربى مثل ما وجدت من طرائف صاحبه وتقااضه وأفانيته . لأنه مذهب شمر بفحواه كل شاب عاجل الفلسفة ولاشتغل بالتفكير في أوائل هذا القرن العشرين

لقد كان التشاؤم طبيعياً معقولاً في زمان شوبنهاور فأصبح طبيعياً معقولاً أن يتصل الرأي والشعور بينه وبين الشباب في مثل عهده وفي مثل حاله وإن لم يكونوا على مثاله في مزاجه وأطواره وخير ما قرأناه في تحليل التشاؤم عند ذلك الفيلسوف الكبير كلمة « دورانت » مقدم طبيعته وملخص فلسفته حيث يقول عنه وعن بعض معاصريه :

« لماذا كان النصف الأول من القرن التاسع عشر مبعثاً لتلك الأصوات من أسداء العصر ينطق بها الشعراء المتشائمون على غرار بيرون في إنجلترا ودي موسيه في فرنسا وهيني في ألمانيا وليوباردى في إيطاليا وبوشكين ولرمتروف في روسيا، عدا الموسيقيين من أضراب شوبير وشومان وشوبان بل ينتهون من التشائم الذي حاول أن يقنع نفسه أنه من المتفائلين ؟ بل فوق ذلك جميعه فلسفة الحكيم العميق في تشاؤمه ارثر شوبنهاور ؟

« لقد ظهرت مجموعة الويل والهول المسماة بـ « الدنيا لإرادة وفكرة » سنة ١٨١٨ وكانت سنة الحلف المقدس بعد أن قضى الأمر في معركة آرتلو وخذت الثورة وقذفت الحوادث بابن الثورة إلى صخرة في البحر السحيق يبلى عليها ويدوى . وإن قبساً من تقدس شوبنهاور للإرادة مأخوذ ولاشك من ذلك الأفتونم الفخم المنضب بالدماء المجد في شخص ذلك الكورسيكي الصغير ، وإن قبساً من فنوطه وإحجامه عن الحياة مأخوذ ولاشك من جوانب جزيرة القديسة هيلانة حيث صارت الإرادة إلى الهزيمة والغسل في النهاية ، وأصبح الموت وهو الظافر الوحيد المحوم على ميادين تلك الحروب ، وقد عاد البوربون إلى عرشهم ، ورجع الأمراء والنبلاء يطالبون بأرضهم ، وراح خيال الاسكندر الطامع إلى السلام يحتضن في غفلة منه عصابة تقضى على التقدم من كل صوب وفي كل مكان . فقد ولي العصر العظيم وتمد جيتي بحمد الله على أنه ليس بالشاب الفتى في عصر مفروغ منه مقضى عليه بالختام

« خشمت أوروبا ، وانقرض ألوف الألوف من أشد الرجال ، وخرت بطاح واسمات ، وكتب على الحياة في كل موضع على القارة الأوربية أن تبدأ من جديد وأن تبدأ من أعماق الأعماق كي نستعيد في ألم وبطء شديد ذلك الفيض الذي التهمته الفن والحروب . وكان شوبنهاور يسبح خلال فرنسا والنمسا في سنة ١٨٠٤ فيروعه ما يشهد من الفوضى والفتارة في القرى ، ومن الفقر والبؤس بين الفلاحين ، ومن القلق والشقاء بين المدائن والحواضر . ذهبت حروب نابليون وأعداء نابليون وخلفت وراءها ندوب الويل والهلاك على وجه كل بقعة من هاتيك البقاع : فوسكو في الرماد ، والبلاد الانجليزية على ما أصابها من نخر الانتصار قد مئى فيها الفلاحون بكساد القمح وغللات الزراعة ، ومئى فيها صناع المامل بكل ما يتبلى به الصناع في معمل لارقيب عليه ولاحسب ، وزاد تسريح الجنود في نكبات البطالة . وروى كارليل عن أبيه في تلك الآونة أن العمال كانوا يذهبون يومئذ فرادى إلى البرك والجداول يملأون بطونهم بالماء بدل الطعام ولا يمتهم إلا أن يستروا ما بهم من الضنك عن الآخرين . ما كانت الحياة قط أفرغ من معنى ولا أحسن مما كانت يومذاك »

هذا منشأ الفلسفة الشوبنهاورية من أحوال السياسة وأطوار الدول والمجتمعات . ولهذا الفلسفة منشأ آخر من أطوار الفكر والمقيدة لا يقل في أثره عن حروب نابليون وهزائم الجيوش ، وذلك هو شيوع الشك في العقائد والأديان والأمثلة العليا بين الأوربيين بعد عصر النهضة العلمية وعصر الثورة الفرنسية ، فلا أمل في الدنيا ولا في الآخرة ، ولا معنى للسعى ولا للقعود ، ولا خير في التفكير ولا في التسليم ، ولا مناص بعد ذلك من ترجمة هذه الحالة في فلسفة منظمة منسوقة مقننة كتلك التي بشر بها صاحبنا رسول التشاؤم ونذير الفناء

أي حالة هي أشبه بحالة الشاب القارى في أوائل القرن العشرين من حالة ذلك العصر أو حالة ذلك الانتقال ؟

كل شاب يخرج من حظيرة البيت إلى معترك العالم فإنما يخرج من دنيا أحلام وظنون إلى دنيا صراع لا هوادة فيه ، ولا سبياً في أوائل القرن العشرين حيث كان للعقائد سلطان ، وكان للأمثلة العليا بين الشرقيين خاصة مجال لم تضيقه الحقائق والتجارب

## غريب الهوى في عيد القهر للدكتور زكي مبارك

أذكرُ يا قلبي ؟

أذكرُ أن من الناس من يقول : (عيد الأضحى) ، وأن منهم من يقول : (الميد الكبير) ، وأن أهل سنترس يقولون : (عيد القمر) كأنما عثر عليهم أن يبقى القمر بلا عيد ؟  
ليت شعري أظلل أهلي وأهلك يسمونه عيد القمر ، أم تغيرت من بعدنا الأسماء ؟

كان لي أهل ، وكان لك أهل ، يا قلبي

أما أهلي فبخير ، وإن كنت أتوجع كلما ذكرت أن أولئك الأهل خلا ناديم من وجه أبي ؛ وكان لك أهل يا قلبي ، ولكن أخبارهم غابت عني منذ أزمان . فإن كانت عندك أخبار فحدثني عنهم ، فما أحب لك أن تعيش في دنياك عيش الغريب !  
لا تكتم عني شيئاً يا قلبي ، فما لك في الدنيا آسٍ سواي .

أما رأيت كيف كانت أحداث الناس في هذا المساء ؟ فما لقيني أحد من أعضاء المؤتمر الطبي إلا سألتني عن صحة ليلي . وما أذكر أبدأ أن أحداً سألتني عنك ! وكذلك جاز أن يسأل الناس عن صحة القتال ويسكتوا عن خبيثة القتل ! والويل كل الويل للغلوب

\*\*\*

إن ليالي الأعياد ترجمني إليك يا قلبي

فهل تذكر يوم كنا طفلين ، حين كان من المؤلف أن يزور الناس المقابر وفي أيديهم المصاييح ؟ وهل تذكر أننا سألنا مرة عن الحكمة في حمل المصاييح في الليلة القمرية ، ليلة عيد القمر ، فكان الجواب أن الأموات يأنسون بالأضواء ؟

فهل تسمح بأن أحمل مصباحاً في هذه الليلة ، وأخرج مملك زيارة المدفون من أوطارك وأحلامك ؟ ولكن أين المقابر التي دفنت فيها أوطارك وأحلامك حتى أونسها بضوء المصباح ؟ أين ؟ لا أين ، فإني أخشى أن تكون المقابر صنمت بأحلامك ما يصنع البحر بما يدفن فيه من سرائر القلوب !

لهذا كان بين شوبهور وكثير من الشباب القارئيين عندنا نسب قريب في أوائل هذا القرن العشرين . ثم تقلبوا مع الحياة فنسوه بعض النسيان من أثر الواقع نارة ومن أثر التشاغل ناراً ، أو من أثر التصحيح والتهذيب الذي لا يحصى عنه مع تعاقب الأيام وتمدد القراءات

فلما قيل إن العالم سيحتفل بميلاد إمام المتشائمين كان في القول ما يشبه الفكاهة والدعابة ؛ ولو قيل إن العالم سيحتفل بيوم وفاته لكان في القول بعض المجازاة لموضوع الاحتفال وصاحب المذهب . ولكن الرجل ظريف على الرغم منه ومن فلسفته ، فلنكن هذه من دعابات الزمن معه ، ومن وفاء الزمن له في قرن واحد

أما فلسفة الرجل بتفاصيلها فيطول شرحها ولا يتسع لها مقال ولا سلسلة مقالات ، وهي مستمدة من حياته ومن سيرته ومن عصره . فن عرف تاريخه عرف الكثير من بواعث آرائه وعلل أحكامه ، وعرف مكان الصدق في المطابقة بين الروحي ومصدره وبين البيئة والتعبير عنها . ومجل تلك الفلسفة في سطرين : أن الإرادة هي صاحبة السلطان في أعمال الأحياء وحركات الحياة ؛ وأن الإنسان يلمس الأسباب والبراهين لأنه يريد ، ولا يريد لأنه يلمس الأسباب والبراهين ؛ وأن الفكرة تلتقي الإرادة وتشل الحركة وتنتهي بالحياة إلى سكون كسكون « الثرفانا » عند الهنود ؛ وأن الإرادة تلتقي بالفردية ، أما الفكرة فتتعلق بالعمومية الشائعة في السكون كله . ومن ثم يجيى الفن والدين والنبقرة على رأس الفكرة ومن وراء الإزادة أو من وراء عالم الأعمال والحركات ، فالصير الذي يطوبنا جميعاً ويطوى أعمالنا وآمالنا إنما هو الفناء أو ما يشبه الفناء

وفي مقال آخر سنطابق بين سيرة الرجل وفلسفته ، وبين المرض والجوهر في هذه المطابقة . وحسبنا الآن وهم يحتفلون بميلاده في الثاني والعشرين من شهر فبراير أن نرجي إلى ذكره تحية المودة والإكبار ، وأن نهتف به : مرحى ! ومرحباً صديقنا القديم من جديد !

عباس محمد العقاد